

العقاب في المدرسة الجزائرية بين مؤيد ومعارض

بشير متيج-ة

أستاذ محاضر

المدرسة العليا للأساتذة- يوزريعة- الجزائر

لقد شغل موضوع التربية العلماء والمفكرين قديما و حديثا على اختلاف اتجاهاتهم، واجتهدوا في حل مشاكلها و تقديم تعريفات وآراء و حتى نظريات لتحديد معانيها، و يمكن تلخيص معاني هذه الأصول ، واعتبار التربية هي تنمية قدرات الطفل الجسمية و العقلية والخلقية و النفسية و غيرها، حتى يتمكن الطفل من أن يحيا حياة سعيدة منسجما مع ذاته و مع المجتمع الذي يعيش فيه ، لكن علماء التربية و خبراءها اختلفوا في الأساليب الصحيحة التي تؤدي إلى تربية حسنة و منها العقاب، فهل يمكن أن نقول أن العقاب ضروري للتربية ؟ و هل هو الوسيلة المثلى للتربية ؟ و الحقيقة أن ظاهرة العقاب انتشرت في مدارسنا بشكل كبير وفي بيوتنا بشكل أكبر، حتى أننا اعتقدنا على مرّ الأزمنة أن الضرب هو الوسيلة الحقيقية للتربية، و لو سألنا معلما لماذا تعاقب التلميذ؟ لا أجاب إنني أعاقبه حرصا على مصلحته ، كي يكون مواظبا يحترم الوقت يؤدي واجباته المدرسية ، أغرس فيه السلوكات الحسنة وأجنيه كل ما هو بذئ. وهذا الاتجاه كان هو نفسه الذي يوصي به و لي التلميذ عندما يسجل ابنه لأول مرة في المدرسة، فيقول للمعلم « أنت أقتل و أنا أدفن »... ولو تذكرنا وسائل العقاب التي كان يتعرض لها التلميذ في الماضي القريب لا اقشعرت جلودنا من هذا السلوك الغريب، إذ كان التلميذ يضرب بعصا على الأصابع عدة مرات، ويصفع على الوجه لأتفه الأسباب وهناك نوع آخر من العقاب يعتبر حضاريا: يوضع التلميذ في آخر الفصل موليا وجهه شطر الجدار واقفا على رجل واحدة رافعا الأخرى، أو يطالب بكتابة جملة أو نص عشرات المرات خارج أوقات الدراسة.

ومن المربين من يعتبر العقاب أحد وسائل التربية وليس أهمها أو كلها، وقد يرجعه بعضهم إلى اضعف وسيلة، ويجعله علماء التربية في المرتبة الأخيرة جاعلين القدوة في المرتبة الأولى ثم التواب وأخيراً العقاب ومع هذا نجد أن الكثير من المدرسين يجعلونه في المرتبة الأولى وبيبالغون في التركيز عليه، ربما لأنه يحقق نتائج سريعة يريدون تحقيقها في وقت معين، فقد يلجأ الأب إلى ضرب ابنه ليقوم بواجباته المنزلية و قد يمثل الطفل من شدة الخوف، فيعتقد أن الأب انه حقق شيئا، و في الحقيقة أن التغيير الذي حدث للطفل

ما هو إلا تغير شكلي و سطحي، فالطفل يتظاهر بالجدية في المذاكرة و ربما يكره الدراسة بشكل عام نتيجة هذه القسوة.

و تبقى مشكلة العقوبة و ضرب الطفل محل نزاع بين مؤيد و معارض، و يرى المعارضون أن العقاب في التربية مرفوض جملة و تفصيلا مستنديين في ذلك بحديث النبي صلى الله عليه و سلمولن يضرب خياركم « فالطفل الذي يحظى بحب مربية يشب واثقا من نفسه و سعيدا بها، متصفا بطاقة كبيرة تمكنه من الاستفادة مما يملكه من طاقات و إمكانيات ويستغلها بنجاح في حل المشكلات التي تعترضه في حياته الاجتماعية و الدراسية، أما الطفل الذي لا ينعم برضا مربية فلا شك أنه ينمو بثقة نفس ضعيفة " و لا يستطع الاستفادة إلى أقصى الحدود بما وهبه الله من ذكاء و طاقات و إمكانيات واستعدادات " (1).

و يستدل البعض الآخر بتوجيه الرسول صلى الله عليه و السلم للآباء أن يأمرؤ أولادهم بالصلاة و هم أبناء سبع سنين ويضربونهم عليها إذ لم يصلوا في العاشرة على إقرار الضرب في المدارس ، لكن هذا فهم خاطئ للحديث ، لأن الرسول صلى الله عليه و السلم أعطى فرصة كبيرة و مدة طويلة للآباء كي يدرؤ أبناءهم على الصلاة، فلو ضربوهم بعد ثلاث سنوات من التكرار و لم يستجيبوا لكان هذا الضرب مبرراً لكن هل يستحق الطفل أن يضرب لمجرد حركة في القسم؟ من المنفق عليه أن الأطفال يختلفون عن بعضهم البعض في مستوى قدراتهم العقلية و الحركية و صفاتهم الجسدية ، كما يختلفون في قيمهم و اتجاهاتهم و تكامل شخصياتهم، لذلك أنه عندما لا تفيد النصيحة و الإرشاد والرجاء و الحسنى، و لا تنفع معهم القدوة و الموعظة وغيرها، يمكن اللجوء إلى علاج حاسم ، كما يذهب إليه بعض المربين الذين يرون في العقوبة علاج ، لكن العلاج بالعقوبة المناسبة و بالأسلوب الهادئ الخالي من الانتقام ، العقاب الذي يهدف إلى صلاح الطفل و إفادته،» و لكن ليس بمعاملته كحيوان و إنما كمخلوق ضعيف يحتاج إلى رعاية و عناية و توجيه وإرشاد « (2) و يرى بعض علماء التربية المسلمين أن العقاب أسلوب من أساليب التربية، فأشار بعضهم أنه لا غنى عن العقوبة بشرط أن تبدأ بالإنذار ثم يليها التوبيخ ، فالتشهير فالضرب الخفيف. و ذكر أكثرهم أن العقوبة تنقسم إلى قسمين، عقوبة معنوية و عقوبة بدنية، على أن تسبق النوعين النصائح و التوجيهات لأن الأصل في التربية هي اللين و الرحمة و الرفق. فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه و سلم قال لها : " إن من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الدنيا و الآخرة " (3) ، و عن ابن عباس قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم " ليس منا من لم يرحم صغيرنا و يوقر كبيرنا و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر " (4) و عن ابن عباس أيضا عن النبي صلى الله عليه و السلم قال : " علموا و بشروا ولا تعسروا و إذا غضب أحدكم فليسكت " (5) و مما يؤكد أن النبي صلى الله عليه و سلم كان

رفيقاً رؤوفاً بالطفل و الرحمة في معاملته بالحسنى في كل الأحوال"، فعن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: " خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في إحدى صلاتي العشي : الظهر أو العصر ، و هو حامل الحسن أو الحسين ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه و السلم، فوضعه، ثم كبر للصلاة ، فصلّى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها فقال إني رفعت رأسي ، فإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه و السلم و هو ساجد فرجعت الى سجودي فلما قضى رسول الله صلى الله عليه و السلم الصلاة قال الناس ، يا رسول الله ، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة قد أطلتها فظننا أنه حدث أمر أو أنه قد يوحى إليك ، فقال عليه الصلاة و السلام: « لم يكن ، و لكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته " . (6)

غير أنه يجب على الآباء من جهة أخرى أن يراعوا طبيعة الطفل المخطئ في استعمال العقوبة ، لأن الأطفال يختلفون فيما بينهم في الأمزجة، و " يتفاوتون في الذكاء و المرونة و الاستجابة نتيجة للوراثة والبيئة و عوامل النشأة و التربية" (7) من هنا كان من الضروري الفرق بالأطفال خاصة نحن في عصر كثرت فيه المغريات و تنوعت أسباب الترفيه و التسلية و أصبحت الدعاية و الإشهار و التوجيه النفسي والاجتماعي تغطي على كل مكان ، وانتهى العصر الذي تمحورت فيه الجهود التربوية بما يعرف بالتربية الشكلية، بحيث انصبّ الاهتمام في الماضي على مادة التعلم و عقوبة المتعلم دون التمييز بين كبير و صغير أو بين الكبار و الصغار أنفسهم لأن الهدف آنذاك كان يكمن في حفظ المعلومات دون فهمها و استيعابها . أما في وقتنا الحالي فقد أصبحت أهداف التربية ترمي إلى استيعاب الخبرة الاجتماعية بكل جوانبها عن طريق فهمها و تمثيلها ثم إدخالها بطرائق تذكيرية معينة والاحتفاظ بها و ضمان استرجاعها في المستقبل في الوقت المناسب و بشكل انتقائي. لكن هذه الدرجة الرفيعة من الاستيعاب التي تطمح إليها التربية المعاصرة ويزداد إلحاحها و ضرورة بلوغها مع تعاظم التقدم العلمي تتطلب معالجات شتى و إعادة تصنيع للمعلومات ، الهدف منها إعادة تشكيلها في ضوء ما يملك المتعلم من قدرات و إمكانيات عقلية و صفات خاصة، أي مراعاة المدخل المتعلق بالخصائص العمرية و الفروق الفردية و مستوى النمو أو الخبرة السابقة، لأن هذه المعلومات يجب أن تتفاعل مع تلك الإمكانيات المعرفية و الخصائص الشخصية التي يمتلكها و يتحلى بها المتعلم .

و لهذا تعد الجهود و النشاطات التي يبذلها الطفل هي نتيجة تحرره من الخوف و الضغوطات ، وتجنبه العقوبات المعنوية و الجسدية، فالطرائق التي يستخدمها في إطار إستراتيجية معينة هي الشرط الأساسي الذي يكفل عملية الاستيعاب التي تتم في جو ملؤه راحة البال و اطمئنان النفس للذات يتمتع بهما كل طفل ، و هذا ما يدفعه الى بلوغ الهدف المنشود و يؤدي به إلى بذل جهوده و تركيز انتباهه ويؤمن

درجة قصوى من التآزر بين العمليات العقلية و التوازن النفسي ، و لا شك أن طبيعة العلاقة بين المعلم و المتعلم مرت بتغيرات كبيرة عبر العصور وتغيرت مهام المعلم و تغيرت نظرة الأولياء للمعلمين عندما كانوا يسندون تربية أبنائهم للمعلم بصفة مطلقة دون محاسبته على طبيعة العقوبة مهما كان نوعها بل كانوا متضامنين معه في تسليط عقوبة مزدوجة ، ثم تلاشت هذه الفكرة و أصبح الجميع يتحفظ في استعمال العقاب كوسيلة للتربية خاصة بعد صدور قرار وزارة التربية الوطنية (8) التي قررت منع كل أشكال العنف المعنوي أو العقاب البدني في الوسط المدرسي ، وحددت ذلك في حالات الضرب ، الشتم، السب ، الإهانة ، و التجريح وكل ما يلحق بالتلاميذ و باقي أفراد الجماعة التربوية بالضرر المادي و المعنوي ووصفت ذلك « بالأسلوب غير التربوي » . وتواعتد وزارة التربية بإخضاع الموظفين المتسببين في العقاب البدني و المعنوي للإجراءات التأديبية المنصوص عليها في القوانين الأساسية السارية المفعول و ذلك بتوجيه لهم تهمة الخطأ المهني الذي سيدرج في مساهمهم المهني.

هذا القرار تباينت حوله الآراء والأطروحات ، و اختلفت نتائج تطبيقية باختلاف المراحل التعليمية والتوجهات الفردية الخاصة بكل مربي، فالبعض نظر إليه من فكرة أن السيطرة على الفصل و معاينة التلميذ بأساليب تربوية حديثة ، و البعض الآخر يعتقد أن قرار منع الضرب بالمدارس ساعد على تفشي الفوضى وعدم احترام المعلم.....!

لا ننتعمق كثيرا في عرض أفكار المؤيد و الرافض بقرار منع الضرب في المدارس، لأن التحقيق الذي أجريناه نظريا و ميدانيا كفيل للإجابة على كثير من التساؤلات منها.

لماذا يختلف المعلمون في تطبيق قرار منع الضرب في المدارس؟ فمنهم من يؤيد هذا القرار و منهم من يعارضه إيمانا منهم بأهمية الضرب كوسيلة لردع التلاميذ المشاكسين تعليميا و سلوكيا. و لم يقتصر بحثنا هذا على فئة المعلمين فقط، بل تطرق إلى التلاميذ لمعرفة ردود أفعالهم انطلاقا من استبيان خاص بهم. بدأنا بالسؤال الذي يبدو هو الأهم بالنسبة لهم: هل الضرب معمول به في مدرستك؟ لم يتردد الكثير من التلاميذ بالإجابة بنعم، وهذا ما ذهب إليه بعض المدرسين من وجود الضرب حاليا رغم قرار المنع ، و ربما السؤال الذي يبدو الأهم هو: ما هي أشد وسائل العقاب تأثيرا على التلاميذ؟ من وجهة نظر التلاميذ أنفسهم، طلبنا من العينة ترتيب أنواع العقاب حسب (أشدّها) على نفسية التلميذ، فكان الترتيب كالتالي: الضرب، خصم العلامات، استدعاء ولي الأمر، الطرد من المدرسة لمدة معينة، التشهير داخل الفصل كالتوبيخ و الوعيد...

و في سؤال آخر كيف ينظر التلميذ للمعلم الذي لا يستخدم الضرب كوسيلة عقاب: أجاب بعضهم أنه معلم متفهم، فيما البعض الآخر أنه قوي الشخصية. ونظر إليه فريق آخر أنه ضعيف، و القليل منهم من أحوال

عدم استخدام المعلم للضرب إلى أنه معلم حنون وهؤلاء نسبتهم ضعيفة ، ومن التلاميذ من يحب المعلم الذي يستخدم العصا كوسيلة للعقاب و لا شك أن هذا يدخل في ثقافة كل تلميذ و طريقة التربية التي نشأ عليها في البيت التي مع الأسف تعتمد الضرب كوسيلة أساسية في التربية ، و يجدر بنا أن نعود إلى الدراسة التي قام بها مجموعة من الباحثين تحت إشراف الدكتور مصطفى عشوي، هذه الدراسة أكدت أن أزيد من ثلاثة ملايين عائلة جزائرية تعتمد في تأديبها للطفل على العقاب الجسدي مستعملين كذلك عدة وسائل : الرمي بحجارة، أ و بحذاء، الضرب على المؤخرة باليد المفتوحة، القرص، الضرب على الوجه و الرأس، على أطراف أخرى من الجسم ، جذب الشعر...

وحسب هذه الدراسة التي شملت العينة فيها 1700 عائلة، فإن نتيجة هذه العقوبات غالبا ما تخلف جروحا ورضوضا خطيرة على مستوى الوجه و الأطراف، كما تستعمل الأسرة في كثير من الأحيان عقوبات غير جسدية تتمثل أساسا في العقاب النفسي كالتخويف وإشعار الطفل بالذنب و الخجل أو منع المكافأة ، ويعتبر التعنيف و الزجر و الصراخ ومنع الطفل الأشياء المفضلة على غرار النقود و اللعب ومشاهدة التلفاز من أكثر العقوبات النفسية ممارسة من طرف الأولياء ، كما يعد الإهمال من أكثر وسائل العقاب غير المباشر التي تعتمد عليها العائلات الجزائرية ضد أطفالها.

وبينت الدراسة أن الأم أكثر ضربا للأطفال من الأب و ذلك بنسبة 30 بالمائة مقابل 23 بالمائة عند الأب بينما مورس الضرب من الوالدين معا بنسبة 19 بالمائة أما الأشخاص الآخرون الذين يضربون الأطفال في الوسط الأسري كالجددين و الأخوة والأخوات فلم تتعد 3 بالمائة ، كما كشفت الدراسة أن 23 بالمائة من الأطفال تلقوا أول عقوبة في الوسط الأسري قبل بلوغهم السادسة من العمر، أما أكبر نسبة لتلقي العقوبة فهي عند الفئة العمرية من ست إلى عشر سنوات بنسبة تفوق 32 بالمائة. وتوصلت الدراسة إلى معرفة دوافع العقاب الجسدي للأطفال داخل الأسر مدى فعاليتها في التربية، إذ صرح 64 بالمائة من الأولياء والمعلمين و التلاميذ أنه لا ينبغي أن يسمح بإيقاع العقاب البدني على الأطفال في البيت ، بينما عارض هذه الفكرة 24 بالمائة من المشاركين و أكد 55 بالمائة أن للعقاب الجسدي على الطفل في البيت ما يبرره واعتبر 44 بالمائة أنه ضروري كوسيلة للتربية.

و ترى الدراسة أن العديد من الدوافع الوراثية و الثقافية تكون سببا للاعتماد على التعنيف والعقاب في التربية، حيث أشارت الدراسة أن كلمة ضرب متداولة بشكل كبير في الأمثال و العبارات الجزائرية مثل (أضربُ يعرف مضرب، العصا لمن عصا ...) كما بينت الدراسة أن الجهل و الأمية من أهم دوافع ممارسة

التعنيف ضد الأبناء، حيث تبين أن 70 بالمائة من الأطفال الذين تعرضوا للعقاب البدني داخل الأسر مست الأمية 40 بالمائة من أمهاتهم و 60 بالمائة من آبائهم.

ولمعرفة أفكار جديدة في العقاب و مواقف التلاميذ منه سألناهم عن العقاب الذي يعتقد أن زميله يستحقه إذا أخطأ، فكانت الإجابات متفاوتة لكن الكثير منهم أجاب بأن يكون العقاب على قدر الخطأ والبقية ترى أن الحوار كفيلاً بذلك أو عقوبات تتمثل في الإكثار في الواجبات المنزلية، و الغريب في الأمر أن بعض التلاميذ لا يزالون يطالبون بالضرب لمن يخطئ.

وقد طرحنا سؤالاً وحيداً على طلبة المدارس العليا لمعرفة موقفهم من العقاب و رؤيتهم للمستقبل: هل تستخدمون الضرب إذا ما أصبحتم معلمين؟ الغالبية الكبيرة من الطلاب، زعموا أنهم لن يستخدموا الضرب في المستقبل، فيما أصر بعضهم أنهم سوف يستخدمونه إذا ما لزم الأمر ذلك.

و حتى و أن تباينت الآراء و الأفكار حول موضوع العقاب بين المؤيد والرافض يبقى الضرب هو الغالب و المنتشر في الوسط العائلي و المدرسي، رغم أن التربية الإسلامية تعتمد في تأسيس برامجها و توجهاتها على القرآن و السنة في إعداد الإنسان " إعداداً قوياً يتماشى مع الزمن ومتطلباته " (9) و ما كانت توصي به التربية هو (استعمال التشويق في التعليم و تجنب العنف و الشدة، بإتباع قوله صلى الله عليه وسلم : « علموا ولا تعنفوا، علموا و يسروا و لا تعسروا ، إن الله لم يبعثني متعنّتا و لكني بعثني معلماً ميسراً » و أكدوا على تعليم و تربية الأولاد بما يناسب عصرهم وحريرهم من القيود فكان الإمام علي كرم الله وجهه يقول: « لا تقصروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » و كان السلف الصالح يوصي بإعطاء فسحة للعب حتى يبعد الأطفال على الخمول و الكسل و يزيل عنهم أتعاب الدروس ، قال ابن مسكويه: " منع الطفل من اللعب وإرهاقه بالتعلم دائماً ، يميّت قلبه و يبطل ذكائه و ينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة و الخلاص منه " (10).

و حث الطفل على اللعب لأنه من علامات صحة الطفل و نشاطه، فحين سأل أحدهم معلماً عن أحوال المتعلمين لديه قال: « ولع كثير في اللعب، فأجاب السائل: وإن لم يكونوا كذلك، فعلق عليهم التماث، إذ لا مانع من اللعب إلا المرض » و كان أبو حامد الغزالي يقول: « أفضل الصناعات بعد النبوة العلم » و يصف المعلم بأنه كالمسك يطيب غيره و هو طيب، وكان علماء المسلمين يوصون المعلم (بعدم إكراه التلميذ على الدروس، فالإكراه يزيد نفور التلميذ ، و القلب مع الإكراه أشد نفوراً وأبعد قبولا (إن القلب إذا أكره عمي) و كانوا لا يباغتون الصبي المذنب باللوم و التوبيخ، ويغضون الطرف على الهفوات التي تصدر عنه و لا يكرون عليه العتاب (لأنه يهون عليه سماح الملامة وركوب القبائح).

حاجات الطفل:

الطفل هو عماد المجتمع و البنية الأولى في تركيبه و هو باني المستقبل بكل أصنافه ، إذا فلا بد من المحافظة على هذا الكائن و تربيته تربية صالحة فإذا ما صلح صلح المجتمع كله و إذا ما فسد فسد المجتمع كله، لذا فإن تنمية قواه العقلية و البدنية وفقا لمراحل نموه المختلفة هي مهمة المجتمع الذي يقصر أحيانا في هذا الواجب مما يعرض الأطفال للإهمال من طرف المؤسسات التي أوكلت إليها مهمة التربية سواء كانت العائلة أو المدرسة.

و من أولى المهام التي تقع على المجتمع كي يضمن تقدمه و تطوره و مستقبله الزاهر هو تلبية حاجات الطفل النفسية و الجسمية، التي تمكنه من أن ينمو نمواً طبيعياً جسمى و عقلياً، و طالما أن المجتمع يضع خططا تربوياً يطالب فيها الطفل بالتكيف مع الوسط الذي يعيش فيه و يتأقلم معه بصورة مباشرة مع الكبار مما " يسبب له انكساراً أحيانا في شخصيته و قد يعرض هذا التكيف حتى على الطفل الصغير بمجرد دخوله المدرسة فيحرم من نشاطات تلقائية في المرح و اللهو و اللعب" (11) بالرغم من أن معظم علماء التربية يحثون على فسخ المجال للطفل للحركة و اللعب المهدب، ليزيل ما في نفسه من السأم و الملل بشكل لا يؤدي إلى التعب، و منع الطفل من " ممارسة هذا المجال ستزيد من مشاكله و تبدد ما لديه من نشاط و لمراحل تالية من حياته و في الابتعاد عن مجال الدراسة و عدم الاستمرار فيها " (12).

وكثير من الأطفال من يرفض الذهاب إلى المدرسة لأنه لا يرى فيها إلا سجنًا ، يمارس فيه شتى أنواع العقوبات و الإكراه، لا يجد فيها ما يلبي حاجاته و رغباته الطفولية، فيبحث عن بديل يلهو فيه يكون فيه اللعب حقا مهما و مجالا رحبا لبناء و تنمية شخصية الطفل ، لأن اللعب يفضي إلى " تعويد الطفل على التفكير و الحكم و البناء، و نشاطه و حركته هو أهم ما يساعد على تربية سليمة و الطفل الصحيح هو ذو النشاط و الحركة " (13)

لذا وجب على المربي ترك الحرية للطفل لاكتشاف ما حوله من طبيعة و فحص ما فيها، ليتعرف على ما ينفع و ما يضر « ومن الواجب أن يلعب الطفل ومن الواجب أن ندع الأطفال يلعبون و أن نتركهم ينظمون ألعابهم بحرية و ألا نتدخل إلا في الحالات التي تتطلب تهيئة الألعاب المناسبة لمراحل حياتهم ونراقب ما يقعون فيه من أخطار « فمنع الطفل من اللعب يعني ركونه إلى الخمول و الانزواء، و قد يؤدي به إلى أمراض نفسية كالانطواء و الكآبة، و يستحسن أن لا نتدخل في كل شيء من حياة الطفل بشكل قصري فيقع تحت الأوامر و النواهي دون أن نفسر له الأسباب " فيذعن للبالغ الذي يفرض عليه ساعات معينة للعب وساعات معينة للعمل تبعا لقوانين صارمة و تعسفية" (14).

إن المحيط الاجتماعي الذي يوضع فيه الطفل قد لا يناسبه، و لا يأخذ بعين الاعتبار اهتماماته و طريقة تفكيره و عندما يصعب عليه التكيف مع ما هو غريب، فتصبح المدرسة بالنسبة إليه كالسجن فيحاول التملص و التخلص من هذا السجن بكل الوسائل " إن الإنسان الذي يعيش داخل الطفل يبقى مختبئاً ، وما يظهر أمامنا هو القوة و الطاقة الضروريتان لدفاع الطفل عن نفسه، بكاء صراخات سوء تصرف خجل عصيان كذب غرور ، نزعة تحطيم " (15).

و المجتمع الذي يمارس سلطة تفرض على الطفل تتخذ من التأثير و الضغط و استعمال العقاب منهجا ، يشعر في ظلها الطفل بأن حاجته مهددة و غير مقبولة مما " يزيد من مشاعر الخوف و الخجل عنده ، تزيد من تردده و يقلل من ثقته بنفسه و مبادرته لأنها تفتقد للعفوية و التلقائية و تنشأ له مشكلات عصبية في الصغر من قبيل التبول اللاإرادي و قضم الأظافر و البذاءة في الكلام و القسوة كما ينشر سلوك التباهي واجتذاب الآخرين و انعدام الاستقرار " (16).

إن ما يتعرض له الطفل من عقاب أو إهانة سوف يقلل ثقته بنفسه، فيتصرف بالسلبية و التردد والاعتماد على الغير في حل المشاكل التي تعترض في حياته اليومية ، و عدم القدرة على تحمل المسؤولية واتخاذ القرارات التي لا يكون لها أثر على الفرد فحسب بل على المجتمع كله.

تبقى التربية في ظل هذه الظروف معطلة لنمو الشخصية بشكل عادي و طبيعي ، و ذلك عندما يكون المربي صارما في ممارسة سلطته على الطفل و إجباره على الالتزام و الطاعة و الإذعان " و كثيرا ما تستخدم القوة في الحصول على الإذعان و تأكيد سلطة الوالدين و كذلك ينمو مع الطفل شعور بالعداء للسلطة أو حسب التسلط تشبها بوالديه و قد تصبح هي البداية في عملية التنشئة لتكوين ما يسمى بالشخصية التسلطية اتجاه الآخرين. " (17).

فالتربية عموما في المجتمع العربي و الجزائري خصوصا تقتزن بالعقاب حتى أصبح البعض يعتقد أن الطفل كثير الحركة و النشاط و الذي يتميز بالذكاء و الفطنة و يساهم مع الكبار بإبداء رأيه هو طفل

(غير مربى) و كأنهم يقولون أن هذا الطفل لم يأخذ من العقاب و الضرب الشيء الكافي، و هكذا يصبح " ضرب الأولاد طريقة مقبولة لضبط السلوك و هذا يتم بأشكال مختلفة و لكن أكثرها شيوعا هو الصفعة التي لا تكون مؤلمة بقدر ما هي وسيلة إذلال، و هذا ما يفسر فاعليتها، فالصفعة يمكن توجيهها بسرعة دون سابق إنذار، و الطفل المعتاد على هذا النوع من العقاب يرفع ذراعيه فوق وجهه بصورة آلية عندما يتعرض إلى تهديد ، والصفعة وسيلة لتأكيد السلطة، و فرض الخضوع الفوري والواقع أن الطاعة في العائلة العربية

هي نتيجة الخوف أكثر مما هي نتيجة الحب و الاحترام⁽¹⁸⁾. وهكذا فإن ممارسة العنف على الطفل ما يلبث أن يحوله هو بدوره لإنتاج آلية جديدة للتعامل مع الآخرين ، فالطفل الذي تعرض إلى الضرب من طرف الكبار فلا شك أنه يستعمل العنف مع من هم أصغر منه سنا وحتى في المجتمع فيما بعد ، فيعتمد إلى تحقير الآخرين بطريقة عفوية في تأكيد الذات بمعنى أن الفرد يشعر بالرفعة إذا حطّ من قدر الآخرين بإذلالهم أو الاستهزاء بهم أو التقليل من قيمتهم⁽¹⁹⁾.

إن المربي الذي يستخدم العقاب سواء الجسدي أو المعنوي ويستخدم التلقين و الحفظ و الاسترجاع دون أن يعطي مجالا للمناقشة و إبداء الرأي و بناء الحوار ، سوف يفضي إلى إضعاف أية نزعة إبداعية أو تجديدية ، و هنا الطفل لا يهتم بما يتعلمه و لا يهتمه فهم الموضوع بقدر ما يهتمه حفظه أي استتساخه واستظهاره أمام المعلم عند الحاجة لينفذ نفسه من عقاب المعلم.

مما سبق يمكن أن نخلص إلى أن العقاب له آثار سلبية مهما كانت طبيعتها، لأن التربية لا تعني الشدة والضرب و القسوة، إنما هي مساعدة الطفل على التكيف بنجاح مع الوسط الذي يعيش فيه سواء كان عائليا أو اجتماعيا أو مدرسيا. و عندما نحاول أن نغرس سلوكا طيبا يستحسن مكافأة الطفل لقيامه بعمل ما حتى نثبت في نفسه جانبا من الارتياح الوجداني، و قد عرف سلفنا الصالح أهمية ترغيب الأطفال و ثوابهم عند حسن استجابتهم و من ذلك ما رواه النضر بن الحارث قال: «سمعت إبراهيم بن أدهم يقول، قال لي أبي: يا بني أطلب الحديث، فكلما سمعت حديثا و حفظته فلك درهم. فطلبت الحديث على هذا » و الثواب قد يكون ماديا ملموسا و قد يكون معنويا كالمدح و الابتسام و الاعتزاز بالطفل لعمله الطيب أمام المأى ، إلا أن الغلو في المدح قد ينعكس سلبا على الطفل ، فلا يكثر المربي من عبارات الاستحسان حتى لا يدخل الغرور في نفس الطفل ، و أن لا يكون الثواب المادي هو الأساس، و إنما ينبغي أن يوازي المربي بين الثواب المادي والثواب المعنوي.

الهوامش:

- 2 -العربي بختي: التربية العائلية في الإسلام ص 360
- 3 -مسند الإمام أحمد (3) ص 493
- 4 -سنن النسائي، ج2، ص 96
- 5 -تربية الأولاد في الإسلام، ج2، ص 76
- 6 -تربية الأولاد في الإسلام، ج2، ص 461
- 7 -تربية الأولاد في الإسلام، ج2، ص 761
- 8 - وزارة التربية الوطنية، قرار يتضمن منع العقاب البدني و العنف تجاه التلاميذ في المؤسسات التعليمية
BOEN, N° :
370/Janvier 1994.
- 9 -محمد جابر، التسلط التربوي ص 3
- 10 - الديوهجي، سعيد، التربية و التعليم، بغداد، مكتبة التراث، 1982 ص 7
- 11 - الديوهجي، سعيد، التربية و التعليم في الإسلام ص 50
- 12 - عبد الرزاق مدحت، سيكولوجية الطفل في مرحلة الروضة ، بغداد، وزارة الثقافة والفنون 1979، ص 62
- 13 - عبد الرزاق مدحت، م . س ، ص 65
- 14 - عبد الرزاق مدحت، م . س ، ص 11
- 15 - عبد الرزاق مدحت، م . س ، ص 17
- 16 - محمود محمد مهدي، أساليب التنشئة الوالدية وعلاقتها بالثقة بالنفس، آداب المستنصرية، ع17، 1990 ص349
- 17 - أسعد إسماعيل علي ، المجتمع و السياسة ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، 1983 ، ص 319
- 18 - شراب هشام، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، الأهلية للنشر و التوزيع 1977، ص 40
- 19 - الذهب محمد العزيز ، التربية و المتغيرات الاجتماعية في الوطن العربي ، ط1، بغداد ، بيت الحكمة 2002، ص 80